

## الفصل الأول

### عصر المتنبي

#### ١ - الحياة السياسية والقومية

رافق المتنبي القرن الرابع للهجرة منذ استهلت أعوامه حتى تخطى نصفه الأول فشهد في حياته زحّات الحوادث وتقلّب السياسة وتفرّق الأمصار والشعوب . ومن شعره نستبين معالم هذه السياسة في عصره ، ونجد الطوابع القومية في الغاية التي نَشَدَهَا إذ كانت البلاد الإسلامية موزعة بين الإخشيديين<sup>(١)</sup> والحمدانيين<sup>(٢)</sup> والبويهيين<sup>(٣)</sup> ، وكانت بغداد تحكم في ظلال خائف يترقب ، أضاع الكثير

(١) الإخشيدون : دولة مصرية عرفت بهذا الاسم . وكلمة « إخشيد » من ألقاب الأمراء عند قدماء الفرس ، منحه الخليفة الراضي عام ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) لمؤسس هذه الدولة محمد بن طغج . ويقال إن لفظ الإخشيد معناه « ملك الملوك » . ويذكر آخرون أن معناه « عيد » ، ويحتمل حينئذ أن يكون قد استعمل كما استعمل الخلفاء « عبد الله » اسماً من أسماء الشرف . وتوفى الإخشيد في آخر عام ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) وقد خلفه اثنان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط لأن السلطان الحقيقي كان في يد الخصى الحبشي كائنور الذي ولاه الخليفة على مصر بعد وفاة ولى الإخشيد .

(٢) الحمدانيون : ينسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون أحد رجال قبيلة تغلب الكبيرة وقد برز ابنه الحسين في خدمة الخليفة العباسي فأغلق عليه وعلى إخوته ألقاب الشرف . فولى منهم الموصل والجزيرة حتى إذا حلت سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) بسطوا سلطانهم على حلب وشمال الشام أيضاً وكان على أخوال الحسين الذي عرف بعدئذ باسم سيف الدولة ، هو الذي ائتمزق في ذلك العام حلب وحمص من الإخشيديين في مصر ، ثم كانت له مواقع قوية مشهورة مع البيزنطيين .

(٣) البويهيون : دولة قامت في العراق وفارس وغيرها منذ سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ ورجال هذه الدولة وأنصارها الديلم ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، وإنما سماوا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم وهم الشيعة العلوية . وجد آل بويه الأقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع ، كان له ثلاثة أولاد تملك الأول بلاد فارس برضى الخليفة العباسي ، وتملك الثاني عوارزم والثالث شيراز ، ثم اتحد الثلاثة وساروا غرباً حتى أتوا بلاد بغداد في أيام المستكن سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم : عماد الدولة وركن الدولة وممزر الدولة ، ثم استبدوا بالملكمة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولهم ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام .

بما كان في يده من هبة الحكم والسلطان .

فالبلاذ في داخلها مضطربة متحيرة ، وليس فيها أمن المقام وراحة البال لكثرة ما كانت تعاني من الخصومة والتنازع ، وكل صاحب بلد قاق<sup>١</sup> على مصيره يخشى حاشيته ولا يعلم وجه التصرف في إمارته وماكه ، وعدو المسلمين متربص بهم في بيزنطة على الحدود الشمالية ، يأخذ الحمدانيين على غيرة<sup>٢</sup> عاماً بعد عام .

ولم تكن الأمصار العربية والإسلامية في هذا العصر غافلة عن حياتها السياسية ، فإن الوعي الاجتماعي قد اتسع وعم ، فعرف الناس ما يحيط بهم من العوادي والخطوب ، مدركين أن الانقسام والخلاف طريق للضياع ، ولكن لم يكن في وسعهم الإصلاح وتقويم الاعوجاج في وسط تيار جارف وفتنة عارمة ، فالإخشيدون — أيام كافور وقد نظم الملك بمصر وأعد لها جيشاً وعمارة بحرية — كانوا يطمعون بامتلاك الديار الشامية كلها ، غير أنهم — وقد وجدوا سيف الدولة داهية في السياسة ، متمرساً بالحكم والتدبير ولديه جيش جرار وقف به في وجه البيزنطيين — تهبوا جانبه فلم يتورطوا معه بعداء مستديم . وخليفة بغداد الذي وجد سيف الدولة درعاً له لم يحاسبه في إمارته التي أقامها بحلب ، كما ترك أخاه نصر الدولة يقيم إمارة بأعلى العراق .

وبين هذا وذاك كانت فارس متربصة بالعرب تستيقظ بملء جفونها لتطيح بالعروبة وآمالها بعد أن تملكتم زمام الجيش واستولى منها رؤساء على المصالح في الإدارة والقضاء .

وكان الحمدانيون أنفسهم منقسمين بين عمومة وتحاسد ، فأبو العشائر غير قانع بإقطاع أنطاكية<sup>(١)</sup> ، وأبو فراس بمنبج<sup>(٢)</sup> — وهي لإقطاعه — يضمم لابن

(١) وتسمى عند القدماء أنطيوخيا مدينة في شمال سورية وسط سهل خصب جميل في الحوض الأدنى لنهر العاصي . بناها سلوقوس الأول سنة ٣٠٠ ق . م . مكان مستعمرتين قديمتين لليونان . وقد كان لها شأن كبير في التاريخ كما كانت تعد أكبر مدن للإمبراطورية الرومانية وأكثرها سكاناً بعد رومية والإسكندرية . خربتها ملوك الفرس مرتين ودمرتها الزلازل المروعة التي تتابعت عليها بكثرة غير مألوفة . احتلها العرب عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) ثم انتزعت من بني حمدان في آخر عام ٣٥٨ هـ =

عمه سيف الدولة حرمة مشوبة بنكد وتنغيص ، إذ رأى المتنبى قريباً ووجد نفسه بعيداً

ومن الأدلة الواضحة على اضطراب السياسة في هذا العصر ما كانت عليه الخلافة ببغداد فإن أبا حامد الإسفرائيني قاضياً<sup>(١)</sup> الذي عاش حتى أواخر القرن الرابع وعاصر المتنبى كان يتهيبه الخليفة ويحذره وقد تجاسر يوماً فكتب إليه متوعداً :

« أنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك »<sup>(٢)</sup>  
فن هذه العبارة التهديدية يتبين مقدار ما كان عليه خلفاء بغداد من ضعف السلطان في هذا العصر وما بعده ، إذ كان الفرس الذين بسطوا نفوذهم على الجيش هم الذين ينصبون الخليفة ، فإذا تضايقوا منه دبّروا له مكيدة بالعزل أو القتل وأقاموا غيره من خلتقه ، وكان أكثر الوزراء في هذا العهد لا يؤمنون ، ويعلم الخلفاء طوايا المخادعين ، لكنهم لا يملكون التخلص منهم إذ كانوا ذوى

= (٩٦٩ م) وفي ١٠٩٨/٦/٢ استولى عليها الصليبيون وبقيت في حوزتهم حتى فتحها السلطان بيبرس أحد عماليك مصر عام ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) وهي اليوم في حوزة الأتراك نزلت فرنسا لم عنها وعن مدينة الإسكندرونة أيام كانت منتدبة على سورية . هذا والسوريون يجدون دائماً المطالبة بها .

(٢) منبج : مدينة قديمة وتسمى عند القدماء هيرابوليس وتقع على بعد عشرة فراسخ من مدينة حلب شمالاً بشرق وعلى بعد ثلاثة فراسخ من نهر الفرات . شيدها الإغريق في وسط سهل خصب وأقاموا لها سوراً كبيراً . وكان لهذه المدينة شأن عسكري كبير فبها كانت تحشد الجيوش للغزو أو للدفاع عن سورية كما كان لها أيام الرومانيين شأن ديني عظيم ، ويقال إن جستنيانوس تزوج تيودورا في منبج وكانت تقطن في إحدى القرى المجاورة . فتح المسلمون المدينة عام ١٦ هـ وتعرضت هي كذلك للزلازل في عام ١٣١ هـ (٧٤٨ م) أصيبت بزلزال عنيف هدم كثيراً من مبانيها . وخضعت منبج لهوامل الفتح والغزو فتداولها الصليبيون والمسلمون وهي اليوم مدينة صغيرة زراعية . وحسبها فخراً أنها كانت سقط رأس لشاعر عظيم هو الجعفرى وسرير الحكم لشاعر عظيم هو أبو فراس .

(١) توفي الإسفرائيني سنة ٤٠٦ هـ وكان أكبر أئمة الشافعية في القرن الرابع ، وانتهت إليه صدارة الفقه وحلقة درسه بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، كان يحضرها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فقيهه (راجع «طبقات السبكي» ج ٣ ص ٢٥) وقد اتصل أبو العلاء المعري به وتأثر بأرائه الفلسفية ، كما قدم إليه قصيدة من شعر سقط الزند (راجع «تجديد ذكرى أبي العلاء» للدكتور طه حسين ص ١٤٤)

(٢) «ظهر الإسلام» للأستاذ أحمد أمين ج ٢ ص ٢٥٠ .

أعمال حاسمة في سياسة الدولة العباسية، يعزلون ويولّون دون رفع الأمر إلى الخليفة، حتى إن الوزير أبا أحمد العباس بن الحسن كان ذا رأى حاسم في الترشيح للخلافة بعد المعتضد<sup>(١)</sup> فكان يميل إلى ابن المعتز ثم غير رأيه فقال إلى جعفر بن المعتضد وولاه الخلافة لأنه كان فتى ناشئاً وبذلك يمكن الاستبداد به ، وقد تسمّى هذا الخليفة بالمقتدر .

ومن مساوئ السياسة في هذا العصور ما بعده التفرّيم بالمصادرات إبان الفتن والانقلابات فقد ذكر القاضي أبو عليّ الموحّسن<sup>(٢)</sup> التنخى صاحب نشوار المحاضرة<sup>(٣)</sup> فصلاً مروّعة من هذه المصادرات ، كانت تشقى بأسبابها ووسائلها نفوس وتذلّ رقاب ويدخل معها التشنى والحصام .

هذه نظرات خاطفة على أطراف من الحياة السياسية ببلاد العرب في العصر الذي عاش فيه المنتبي متقبلاً بين هذه البلاد في مراحل حياته .

أما الشؤون السياسية في الكوفة — وقد ولد فيها الشاعر وهى التى طبعت شبابه بطوايعها وكان لها الأثر الأول فيه ، فلم تكن مأمونة هادئة ، ولم يعرف أهلها في ذلك الحين الراحة والطمأنينة ، إذ كان يسكنها جماعة من العلويين ذوى البأس ، وكثرت فيها الغزوات القرمطية ، وقد استفحل أمر القرامطة حتى أقاموا البلاد العربية وأقعدوها وبلغ من طغيانهم أن استولوا على الحجاز وقطعوا الحج على الحجاج ، وكانوا يصادرون أموال كل بلد دخلوه ، ولا يتحرجون من أى عدوان أو شغب .

وقد كثرت الحزازات في الكوفة في هذا العصر بين الشيعة والعلويين ، ودامت الخصومة بينهما وحمى وطيسها .

أما الوضع القومى في عصر المنتبي فكانت ساحته بلاد العرب ، وكان بين تيارين عنيفين : التيار القومى الفارسى ، وتيار العروبة الحرة .

فالقومية العربية التى تحدرت من الجاهلية تدعمها الأصالة فى الأنساب وقد توارثتها نفوس تلهب بالحماسة والنخوة ، أحست فى هذا العصر بنكبات وخطوب

(١) « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » لأدم ميتر ترجمة الدكتور أبى ريدة، ص ١٥ .

(٢) الجزء الثامن بتحقيق المستشرق « مارغليوث » نشر المجمع العلمى العربى بدمشق .

تدهم أمجادها وتغشى حوزتها ، وتأخذ بخناقها .

كانت هذه القومية هي القوة الحارقة التي استطاع بها العرب أن يشقوا طريقهم في غمار الأمم المجاورة إلى الفتح المبين ، قومية أصيلة مأثورة تضعفها تعاليم الإسلام على الرغم من دعوتها إلى محاربة العصبية الجاهلية ، إذ أن ما رسخ في النفوس من عنجهية الدم والحسب لم تذهب به الحياة الدينية الجديدة .

وكانت ترنيدُ هذه القومية في العصر الأموي والعباسي الأول نزعةُ الدين الإسلامي وما يحمل في تعاليمه من حضى<sup>٢</sup> على معالي الأمور وانتماس ثواب الآخرة في شهادة الجهاد ، فعاش العرب في ظلال حكم عربي ، شعروا معه بحياة قومية لا يشوبها هوان ، وإن كانت تلك القومية قد تداخلها انقسام أهلها متحاسدين متنافسين بين أزديين وقيسيين ، أو بين عدنانيين وقحطانيين ، وقد جعلوا أنسابهم معرضاً للزهو والعزة والتفاخر . وقد عاش الشعر الجاهلي والأموي يدعمان أنساب العرب وتقاليدهم وربما قال الشاعر القصيدة من أجل بيت يتعلق بأصله ، وشعر الفرزدق وجريبر والأخطل يعجّ بقضية الأنساب والأعراف الصحيحة والزائفة في الفخر والهجاء ، أما في عصر أبي الطيب فقد انقلب الأمر وتطورت الأحكام ولو أحصينا من كانوا في القرنين الثالث والرابع للهجرة من أبناء الجوارى والإماء من الترك والروم لوجدنا الكثير ، إذ سقط من الحساب دم الأمهات وثبت دم الآباء ولم يعد أهل هذا الزمن وما تلاه يستسيغون دعوى النسب والأصالة في العروبة وإن كانوا يحملون آل البيت النبوي ومن تنهى قرابته إلى الرسول عليه السلام وصحبه رضوان الله عليهم فكان ثم مقام كريم. وزعامة دينية لهؤلاء يتوارثونها ويعترون بها .

## ٢ - الحياة الاجتماعية

ظفر المجتمع العربي والإسلامي في عصر أبي الطيب بأسباب التقدم والحضارة وبدا أثر ذلك في مظاهر عيشه ومرافقه وتكوينه ، فكانت الأمصار في أطوار السلم والأمان تمرح في مجبوحة من المال والغذاء ، ولم تصب بلدة بمجاعة - إلا

إذا ألحّ عليها حصار عدوّ قريب أو بعيد - وكان نظام الجباية والخراج منذ اختطه أبو يوسف القاضى (١) - وهو ما نسميه بنظام الضرائب في زماننا ولكنه كان على نحو واسع يتناول المدن والأقاليم بكاملها، فتؤدى مالاً سنوياً للحاكم الأعلى - سارياً على تنسيق وإحكام ، ولو قورن بما كان معروفاً من نظم الجباية لدى الشعوب الرومية والهندية والفارسية لفضل عليها ، وكانت بيوت المال - ونسبها في عصرنا بجزائن الدولة - مملأى بما يرد إليها من البلاد التى تتبعها .

لكن بعض الأمصار جارت في نظام المال بسبب أمرائها ، فكان ابن رائق في العراق أيام الخليفة الراضى مستبدّاً بالرعية ، يداريه الخليفة حيناً وحيناً يزجره ، وحاول هذا الأمير مرة أن يحتج (٢) بعض ما تركه موسر من الموسرين لورثته .

أما سيف الدولة الحمدانى فإنه كان - على شجاعته ونبل مقاصده - قد أسلم أمر ماله إلى قاضيه أبى الحصين الرقى فكان يصادر بعض التركات ويدخل بيت المال وهو يقول كلمته المشهورة :

« كل من هلك ، فليسيف الدولة ما ترك . . . »

حتى هلك هذا القاضى نفسه، في وقعة من وقعات سيف الدولة مع أعدائه ، وحين جال البطل الحمدانى بعد هدوء المعركة يتفقّد ضحاياها من جنده وقوّاده، وجد جثة أبى الحصين هذا بين القتلى ، فداسها بسنابك جواده وهو يقول :

« إذهب لا ردّك الله ، فقد كنت تزيّن لى وجوه الباطل ! »

وثمة صورة ثابتة في حياة الجماعات التى تقاسمت العيش في ظلال هذا العصر وهى حياة الأرقاء والأحرار ، فكانت المرأة والفتى يباعان مثل المتاع ، وقد بلغت أثمان المستحسنات من الجوارى ألوف الدنانير ؛ وأكثر القيان ثمناً هن اللواتى كن يحسن الغناء والضرب على العيذان والمزاهر (٣) ، وكانت بغداد أعظم سوق في الشرق لهذه التجارة في القرن الرابع للهجرة ، وقد اشترى ابن رائق أمير العراق في الربع الأول من هذا القرن - جارية ببضعة عشر ألف دينار ، وأبدي

( ١ ) كان كتاب « الخراج » لأبى يوسف تلميذ أبى حنيفة هو شرح القانون المالى القديم .

( ٢ ) احتج الشيء : جذب به بالحنج أى العصا المقوفة الرأس .

( ٣ ) المزاهر : جمع مزهر وهو آلة من آلات الطرب كالعود أو الدف .

أهل بغداد يومئذ عجبهم من هذا الثمن الباهظ . وغلا الأمراء والأغنياء في اقتناء السراري والفتيان ، وكان للواحد منهم العشرات من هؤلاء ، ولهذا السوق مراكز تجارية وممارسة يخضع أمرهم إلى وسائل التهريب والحيلة .

وقد أخذت الشفقة الخليفة المعتمد عند موته ، فأوصى بعق ثلاثة آلاف من ممالিকে ، وكانت حقوق الحروب والمغازي تغذى سوق الرقيق بالسبي والإسار . والحرب والرق متصلان منذ القديم في حياة الأمم الاجتماعية التي عاشت حتى قامت في عالمنا حقوق الإنسان ، وهي التي قضت على تجارة الرقيق ولم تستطع حتى اليوم أن تبيدها على الرغم مما بذله الرحالة ليفنغستون <sup>(١)</sup> ومات بسبيله ، وما صنعه من جاء بعده من محرري العبيد .

ولم يغض استرقاق الجوارى يومئذ من شأن المرأة الحرة ، فقد كانت متمتعة بسيادة اجتماعية ومنزلة رفيعة ، ولكن النساء الحرائر عامة في العصر الذي نؤرخه كن يجردن في الجوارى والسراري منافسات لهن ، مما كان سبب نكبات شملت الخلفاء والأمراء حتى بلغت من كانوا دون هؤلاء .

وكان الرق والتسرى من أسباب الانهيار والتردى للأمة العربية ، فأصيب مجتمعها - حينئذ كان - بمحن أخلاقية وخلاف في الأسرة والعمل ، وارتقى بعض العبيد في هذا العصر إلى مزاحمة السادة وأولادهم في القيادة والحكم ، وكان منهم القائد والأمير كمنوس وكافور .

أما التجارة فكانت سوقها رائجة نافقة ، وعلى الرغم من قيام الفتن والثورات كان الأمن يستتب بين تلك النامات ، ويركن التجار لبيعهم ويسود الرخاء . وكانت الزراعة مرموقة المحصول ، وقد عرف العرب والمسلمون كيف يستغلون الأرض ، فكثرت غلات الحبوب والقطن والأرز والسمسم ، وكانت أرض الحمدانيين في الموصل وحلب من أجل الأقاليم الخصبية ، غير أن سيف الدولة أمر باقتلاع الأشجار التي كانت حول حلب - إذ كان يتضايق منها جيشه - فأصاب أرياضها حيف أفقدها الخصب والجمال .

(١) ليفنغستون (١٨١٣ - ١٨٧٣) : رحالة إنجليزي ولد في اسكتلندا واشتهر باكتشافاته

في إفريقيا الوسطى وأستراليا وحارب تجارة الرقيق .

### ٣ - الحياة الفكرية

#### ١ - الفلسفة والكتب والعلماء

كان يميز الحياة الفكرية في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه المتنبى شيوع الفلسفة وازدهارها ، فاتبعت الفلسفة وأكثر العلوم العقلية منذ هذا العصر منهجاً علمياً وصار لها أسلوب مذهبي خاص وقد مشى معها علم الكلام ، وأقبل عليها المتأدبون .

ونحن نعلم أن فلسفة المسلمين إنما نبتت من فلسفة الإغريق وخاصة المنطق<sup>(١)</sup> بما نقل إلى العربية منذ عصر المأمون من آثار اليونان ، فتفهم علماء الإسلام هذه الفلسفة حتى عرفوها وأتقنوها فأخذوا يعلقون عليها ويحققون فيها وينشئون لهم فلسفة خاصة تتفق مع المنقول الإسلامي من آثار السلف وأعمال الخلف بما يسائر المعقول الجديد .

وقد ظهر ابن النديم بكتابه « الفهرست » في الربع الأخير من هذا القرن حاشداً فيه صنوف المؤلفات في عصره وما قبله ، وفيها من كتب الفلسفة مقدار يدل على رواجها وإتقانها . وتفرغ العلماء للبحث والتأليف في هذا العصر تفرغاً لم يعهده السابقون ، وكان للعلم أداة نفسية ومادية تؤهل صاحبه لممارسته وقد قررها المطهر المقدسي في مقدمة كتابه « البدء والتاريخ » في شروط العلم فقال : « ويأبى العلم أن يخفض جناحه أو أن يسفر عن وجهه إلا لمتجرد له بكليته ومتوفر عليه معان له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية وهو حليف النصب ، ضجيع التعب » ثم بين ما ينبغي للعالم من السلوك في الاجتهاد والتبعية والتخلق بأخلاق العلماء ، واجتناب التحيز والهوى في تقرير الحكم والرأى واتباع المعقول .

وقد شاع في هذا العصر اقتناء الكتب وكثرت المكتبات وصار الملوك والأمراء بعد الخليفة الأئمة يفاخرون باقتناء المصنفات ، ويتسابقون إلى شراء نوادرها .

(١) ينكر ابن تيمية هذا القول حتى إنه ينقأ أخذ فلاسفة المسلمين المنطق عن اليونان ويرد الكثير من قضايا المنطق إلى منابع إسلامية بحجة مصدرها القرآن والحديث النبوي ، في كتابه ( الرد على المنطقين ) المطبوع في الهند .

وفي أواخر هذا القرن أولعت بغداد بالكتب والتأليف، وصنع مثل ذلك أمراء الأندلس فكان الحكيم صاحب الأندلس يبعث إلى المشرق بالعلماء والتجار الذين كانوا ينتقون له أحاسن المخطوطات وأطرف المؤلفات منذ ظهورها ، وبلغ فهرس مكتبته أربعة وأربعين كراساً كل كراس بعشرين ورقة ، وكذلك كان الأمر بمصر ، فكان للخليفة العزيز المتوفى عام ٣٨٦ هـ خزنة كتب حافلة ، وحين ذُكر بحضرته أن للخليل بن أحمد كتاباً نادراً في اللغة وهو كتاب « العين » نادي خزنة مكتبته وأمرهم بإحضار ما عندهم من هذا الكتاب النادر ، فأحضروا من فورهم ما زاد على ثلاثين نسخة منه وبينها واحدة بخط المؤلف نفسه ، وقد وصف المقرئ مؤلف تاريخ مصر في خططه أن هذه المكتبة كانت تشتمل على مئات الألوف من الكتب النفيسة . وكان لعضد الدولة بفارس خزنة كتب مشهورة عليها أمناء ومتعهدون ، ولم يبق في عهده كتاب أو مصنف إلا حصل على نسخة منه .

وظهرت الكتب في التراكات والموارث في صدر هذا العصر ، وحين توفي « محمد بن نصر الحاجب » خلف كتاباً قومت بأكثر من ألفي دينار .

وكانت حلب في أيام سيف الدولة دار علم وأدب وملتقى للمفكرين والشعراء وقد كثرت فيها المكتبات ، وكان قصره في ظاهر حلب في مكان يسمى « الحلبّة » مزهواً بنوادير المصنفات ، وكان يجرى على العلماء جرايات مالية ليتفرغوا للعلم والتأليف ، فأجرى على الفيلسوف والموسيقى أبي نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أربعة دراهم كل يوم ، وكان الفارابي أشهر من ظهر من الفلاسفة في عصره فضلاً عن معرفته فن الموسيقى العربية ، كما ظهر « إخوان الصفا » برسائلهم الفلسفية النقدية التي أداروا بحوثها وحوارها في الطبيعة وما وراءها وفي المغيبات والظواهر ، وكان لها أثر بعيد في تبصير العقول ، بل نكاد نعدها من أسباب الثورة الفكرية ، وكانت مورداً عقلياً لكثير من المفكرين .

وتحول فلاسفة هذه المدرسة الإخوانية إلى جمعية سرّية خشية من سلطان الدولة . وجعلوا يركزون نشاطهم الفكري في أوساط الشبان لسهولة انطباعهم

بالطوايع الفلسفية التي يربطونها في جمعيتهم .

كما ظهر في هذا العصر أبو الريحان البيروني ، وأبو علي ابن سينا وقد مهد الفيلسوف الكندي الذي جاء في العصر السابق كثيراً من مناهج الفلسفة لمن جاء بعده .

أما البيروني فلم يكن فيلسوفاً فحسب ، وإنما كان موسوعى المعرفة والثقافة وهو مؤرخ وجغرافى ، وقد عاش بعد منتصف القرن الرابع ، وحين نضج تفكيره وتمرس بالمجتمع عنى بدراسة التطور في حياة الأمم ، وكان له فضل كبير في أن ينقل إلى علوم العرب وتاريخهم ما كانت عليه الهند من العلوم والمعارف ، فبذل من عمره أربعين عاماً في نقل هذا التراث الهندى إلى العربية . وكان بينه وبين ابن سينا مكاتبات فأفاد كل منهما من الآخر .

وأما ابن سينا الذى احتفل العالم العربى والفارسى في عصرنا بمرور ألف عام على مولده فقد انتهت إليه الفلسفة والطب ، وكان له في تصانيفه الفلسفية دراسات نفسية تشبه إلى حد قريب مراى علم النفس اليوم في نظرياته وتجاربه ، وكان هذا العالم إلى عقله روحانياً حكيماً ، وكتابه « الشفاء » الذى باشر العلماء المصريون في نشر أجزائه يدل دلالة واضحة على قلرة تفكيره وعلمه ، وقد أولاه الأوروبيون عناية خاصة وشاركوا في الحفاوة بذكراه ؛ إذ كانت كتبه مصدراً فياضاً للدراسات الطبية ، منذ القرون الوسطى في أواسط أوروبا وفى إسبانيا ، فأقيم له منذ عامين بجامعة السوربون وفى جامعات العالم أسبوع خاص بذكراه الألفية ، وحسبه فخراً أن تنازعَ نسبة وفضله العجم والعرب على السواء في هذا العصر .

### ب - الحركة اللغوية

عاش أبو الطيب المتنبي في عصر تألق بالأدب من كل صنف ، وقد راجت سوق هذا الأدب وتقرّب به أهله إلى الملوك والأمراء ، وكانوا به بين متكسبين للمعيشة وبين محبين موهوبين ، ولا عجب فقد كان الأدب للأمة العربية منذ

صدر الإسلام حتى أواخر العهدين العباسي والأندلسي ديوان حكمها وفنونها ومظهر تفكيرها وشعورها .

ولم يكن الأدب منفرداً وحده - كما في مصطلح زماننا - وإنما كان أهله مازجين بينه وبين اللغة وأقيسة المنطق والبلاغة .

فأصحاب اللغة استطاعوا في هذا العصر أن يكوّنوا للأمة العربية معجماً واسعاً فكان إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح منحة هذا الزمن في اللغة ، صنف معجمه على جروف الهجاء ، وانتقى في شرح كلماته أحسن الألفاظ وأصحها فاستراح الناس على يديه من كتب اللغة التي شاع فيها التشويش ولم تعرف التنظيم العلمي ، وخير ما ينفع الناس ما استطاعوا أن يتداولوه في ثقافتهم وعملهم ، وقد جاء معجم الجوهري صحيح النسب إلى صانعه ولم يكن مبتوراً مثل كتاب العين الذي صنفه الخليل ولم يتمه وقيل آتمه أو إن تلميذه أكمله من بعده .

فالجوهري <sup>(١)</sup> إذن نظم للأمة العربية في هذا العصر معجماً محكماً وضعه هو وجرى فيه على منهج علمي ، فحدد معاني الألفاظ وترك من جاء بعده يختصر معجمه أو يعلق عليه بما يزيد العربية فائدة وتحقيقاً ، وساعد التطور الذي كانت تمرّ به اللغة في هذا العصر والحضارة التي مارسها العرب في تنمية لغتهم واتساع أفقها وانبساط سلطانها ؛ إذ كان التعبير هو الوسيلة العملية للاستفادة من اللغة وإخراجها من معجماتها ونصوصها إلى سوق التداول في الأخذ والعطاء .

ورفد اللغة علم النحو والصرف بنموه والتنافس فيه ، وكثر العلماء المنصرفون إليهما ، وكان النحو لا يزال يجد فريقين يخضع كل منهما إلى نزعة منهجية كوفية أو بصرية . ومن الذين تزلعوا من النحو والصرف واللغة أيضاً في هذا العصر أبو علي الفارسي وأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وأبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الربيعي ، وكان هذا الأخير تلميذاً لأبي علي الفارسي لازمه بشيراز ، وأخذ عنه اللغة والنحو <sup>(٢)</sup> في عشرين سنة وتوفى سنة ٤٢٠ هـ .

(١) توفى سنة ٣٩٢ للهجرة .

(٢) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » لأبي الحسن القفطي ج ٢ ص ٢٩٧ طبعة دار الكتب

أما أبو علي الفارسي فكان ذا رأي حر في النحو وثقة في اللغة ، وله أقوال كانت الفاصل في مخالقات كثيرة ، وكان يثر القياس ويعني بقيمة الأصالة للكلمة العربية ، وفتح باب التعريب للكلمات الأعجمية ، وكان بنصرة فكره وتيسيره اللغوي سابقاً لزمه ، إذ أصبحنا نحس في عصرنا الحاضر ضرورة ماسة لتوسيع لغتنا مع الحفاظ على أصالتها لنكفل لها الحياة التي تتمتع بها اللغات الغربية الحديثة .

وجاء بعده ابن جنى وهو من أصحاب أبي الطيب وخلصائه ، وكان الشاعر يثنى عليه وله معه ماجريات . وكان ابن جنى من أكبر المعجبين بشعر أبي الطيب وقد حفل كتابه « الخصائص » <sup>(١)</sup> بأصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقهاء والمقاييس <sup>(٢)</sup> والمطارحات اللغوية والنحوية بينه وبين أستاذه أبي علي الفارسي وغيره من تلاميذه وإخوانه .

وكانت طريقة أهل اللغة في تعليمهم أسلوب الإملاء « المعنعن » في قولهم حدثنا فلان وروى عن فلان ، وكان يمثل هذه الطريقة في هذا العصر أبو القاسم الزجاجي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وهو أحد كبار المدرسين للغة ورواة الأدب والأخبار ، وقد وصف « السيوطي » في كتابه « المزهر » النهضة اللغوية من فواتحها إلى خواتمها التي أدركها بعصره مشيداً بأعمال اللغويين منذ أبي عمرو بن العلاء والأصمعي ، وجعل كتابه « طبقات النحاة » <sup>(٣)</sup> على طريقة أبي عمر بن عبد الواحد اللغوي المعروف بغلام ثعلب والمتوفى سنة ٣٤٥ هـ فكان يجاذب تلاميذه أسئلة وأجوبة حول اللغة والأدب ، فيقيدونها في دفاترهم ، وبرز في هذا العصر ببلاد سيف الدولة جمهرة من علماء اللغة والنحو والشعراء وكان من أشهرهم ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ للهجرة .

(١) تولى سنة ٣٩٢ للهجرة وأتيح لكتابه « الخصائص » طبعة قديمة صدر عصرنا وحديثة سنة ١٩٥٢ بدار الكتب .

(٢) « الخصائص » ص ٢ الطبعة المتقدمة .

(٣) « بنية الوعاة في طبقات النحاة » طبع القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

## ح - الأدب والكتاب

أما الأدب فكان في القرن الرابع الهجري مرآة أصحابه وصور نفوسهم وأهوائهم ، ولم يكن بمعزل عن الجماعات ، ففيه آثار كثيرة صورت مجتمع هذا العصر في الشعر والنثر لكنه لم يبرز كأدب بحث خالص لأخبار الشعراء والأدباء إلا عند القليل كالشعالبي في « يتيمة الدهر »<sup>(١)</sup> . فأبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ جعل كتابه الكبير الذي سماه « الأملى » على نحو ما كان معروفاً في عصره من إملاء الأستاذ تلاميذه مقولاته في الدرس والبحث فظهر جامعاً بين الأدب واللغة والتقصص والتاريخ ، ولم يخل من النحو والصرف .

ولانستطيع أن نجد الأدب المحض في نماذج محددة ومنهج واضح مثلما نجده عند أبي الفرج الأصبهاني الذي صنف لسيف الدولة كتابه « الأغاني » وأجازه عليه بألف دينار واعتذر ، فالأغاني يصور في هذا العصر ما تناهت إليه معرفة مؤلف كبير كأبي الفرج في جمع أصوات اختارها مما كان يغنى به في العصرين الأموي والعباسي إلى عهده ، ومن أجل ما قال الشعراء وأروع ما في شعر العرب من معاني الغزل والشوق والمواجد والفخر ، وهو إن حشا كتابه بالتعابير الاصطلاحية لفن الموسيقى العربية المعروف بزمانه والذي ما زال حتى اليوم مضروباً عليه بسجف المجهول ، فإننا إذا جاوزنا هذه المقولات الفنية الموسيقية ظهر لنا كتاب الأغاني بنثره وشعره عالماً حضارياً لا يفتى في أدب العرب بل سوف يبقى على الدهر مرجعاً وثيقاً لحياة مئات من الشعراء المطبوعين الذين تركوا في الدنيا ذوب أرواحهم المرهقة ، وغرائب سيرهم في الحب والحرب والعبادة .

وصاحب الأغاني في جملة كتابه ، الذي يمثل عصره أصدق تمثيل في الحفاوة بأخبار الشعر ، كان يروي رواياته كتعليقات على الأصوات أو كقدمات لها ، فيدلي بحكمه وأحكام غيره من النقاد ويعكس على مرآته عصره كله في عادات

(١) توفي سنة ٤٢٩ هـ ومن أجل آثاره « يتيمة الدهر » وقد طبع هذا الكتاب بدمشق سنة ١٣٠٤ واستخلص منه المستشرق (رودلف دفوراك) النص الخاص بأبي فراس الحمداني مع دراسة له عن الشاعر وتبع دقيق ، وقد نشر كتابه هذا في مدينة ليدن سنة ١٨٩٥ ميلادية .

المجتمع ومجالس الفكر والمؤانسة وفي الزواج والحفول ودور القضاء ، وفي بيوت  
الخمارين والمحبون ومجالس الغناء والطرب بما يسوق من القصص المنسقة داعماً كل  
ذلك بأسانيد على نسق المحدثين حين يسندون أحاديث الرسول فيرفعونها إلى قائلها  
الأوائل ليضمنوا صحتها وتداولها في مجالس الدرس والشرح والمناظرة ، فضلاً عن  
التراجم - وإن توزع بعضها في جسم بعض - فقد جاءت واعية شائقة تسرد  
سير الشعراء والمغنين والمغنيات بصبر وأناة وتعمق .

وظهر في هذا العصر من أهل الأدب البحت الكاتب أبو الفضل بن العميد ،  
وهو إن اتبع السجع والتنسيق اللفظي مع إفراط في فنون المحسنات في رسائله ،  
فقد كان واعى الفكر حصيف الرأي ومن عدول من كتبوا في كلام العرب على  
الرغم من كونه فارسياً ، وقد بالغ وهو وزير بالحفاوة بأبي الطيب الذي مدحه بفرغ  
الأماديح وسار إليه فتزل ضيفاً عنده .

كما ظهر صاحب بن عباد برسائل على هذا الغرار . وقد حظى ابن العميد  
بمدح أبي الطيب كما حظى الشاعر بعطايه . أما صاحب فقد تأبى عليه  
أبو الطيب ورفض أن يمدحه فلقى المتاعب من جراء ذلك ، إذ ألف صاحب كتاباً  
في مثالبه لكنه ذهب مع الريح وبقى في سجل التاريخ الزمني للأدب العربي أن  
أبا الطيب أعرض عن مدحه ذهاباً بنفسه وقد سئل عن ذلك فقال :  
- « أنا لا أمدح سوى الملوك . . . »

وما جرى في البال ذكر صاحب بن عباد (١) وابن العميد (٢) حتى احتاج  
خاطري من أجل كاتب عرفه هذا العصر هو أبو حيان الترجيدي المتوفى أوائل  
القرن الرابع للهجرة ، فقد سلخ عمره متعباً مناصاً ، وكان صدرَ حياته كاتباً  
ناسخاً بأجر زهيد يعطاه على الصفحة فكان مجهود الأناهل والعينين ، ولم يستطع  
الوصول إلى أمراء عصره فتأخرت نباهة صيته حتى اتصل ببعض قضاة زمنه  
وبالوزير ابن العارض الذي سخا عليه بالتقدير والعتاء ، وكان يعقد له مجالس  
للتقاش والحوار ، ويسجل مناظرات العلماء والمتكلمين بحضوره في مجالس متتابعة ،

( ١ ) توفى سنة ٣٦٠ للهجرة .

( ٢ ) توفى سنة ٣٨٣ للهجرة .

وقد ألف كتباً خالدة في الأدب والمناظرة والأخبار والنوادر وكان عربي النزعة والاتجاه ، ولذا كرهه أدياء فارس ، وكان أكثرهم تنغيصاً له وطعناً فيه صاحب ابن عباد حتى آذاه في شهرته ورزقه ، وهو يعدّ بحقّ إماماً من أئمة النثر العربي البعيد عن الصنعة والتكلف وإليه ينتهي محور النثر الأنيق من الجاحظ أبي عثمان . ولم ينم هذا الأديب على الضيم وإنما انتقم ونال من الوزيرين : ابن العميد والصاحب ، بأن هجأهما وفند عملهما وعيّرهما بالمثالب وأبان للجُمهور ما كانا يصنعان بأهل الأدب مما لا تجيزه المروءات في مكافأة المحرومين والمعطفين من المفكرين والشعراء ، والذين كانوا يتزلون بأبواب الوزيرين ملتهمسين العطاء ، فيعودون بالحبية والأمل المكسور بعد الحجب الطويل . ونجد صدى نفسه الصافية المنغصة في بحثه عن الصديق الذي كان قد افتقده في حياته وقد صور خواطره في الصداقة والأصدقاء ، بكتاب تحت هذا العنوان . وترك للعربية كتباً وروائع مرموقة تعد ذخراً أدبياً واجتماعياً من بينها كتابه المقابسات<sup>(١)</sup> وهو ديوان ثقافته وتفكيره والإمتاع والمؤانسة<sup>(٢)</sup> . وآثار أبي حيان في هذا العصر ترجمان زمانه ولقد عرفنا فيها كثيراً من العلماء والحكام ، وكان يسرد وراء أسمائهم أوصافاً متتابعة تصويرية ترسم في ترجمته للرجال أصدق الصور وأروعها .

ونجد في أدب هذا العصر صوراً لمجتمعه ، فالتأنيق في اللفظ عند بعض كتابه هو صدى للتأنيق في اللباس والطعام والزينة في بعض الطبقات ، وخاصة زينة البيوت بالتصاوير والنقوش ، فكان على الكلام المنثور أن يمارس عصر أصحابه ، فإذا النثر الفني يبرز لدى أصحابه المتأنيقين المزاجيين بين الجمل ، والسالكين في حوك العبارات النثرية جمال القوافي الشعرية ، مثل طنفسه أو قطعة من الديباج الموشى أو البساط المزركش أو حائط الفسيفساء .

غير أن هذا التزويق والتنميق على ظرفه وملاحظته قد انتهى إلى تكلف مكشوف وصناعة لفظية لا صلة لها بالمحسنات الجمالية ، وقد بدت بعدئذ في

(١) طبع بمصر بإشراف الأستاذ السندي .

(٢) طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بإشراف المرحوم الأستاذ أحمد أمين . وقد ألف

أبو حيان هذا الكتاب للوزير ابن العارض .

صورة مقامات عند بديع الزمان والحريري، وما كان أشبهها بالأعيب « السبرك » بزماننا وتلاوين الأزياء ، إن صح هذا التشبيه، وفي أعمال لاعبي « السبرك » كثير من التبديع والأعاجيب تدل على البطولة والمغامرة ، ويكثر فيها النهو والتهميج ، وبذلك انقلب النثر من وسيلة للتعبير والأداء إلى غاية في ذاته ، وليس هذا هو المطلوب من رسالة اللغة .

#### د - الشعر والشعراء

أما الشعر في هذا العصر فقد انبعث في قريظة المنتهي عبقرية فياضة ومواهب متجاوبة وكان أبو الطيب أكثر الشعراء طموحاً ، بل كان في هذا التألق والتجدد ثمرة تطور فني وتمازج فكري بدأ من الثلث الأول للقرن الثاني وذلك بقيام الدولة العباسية ، فنفذ بشار بن برد حدث في شعر العرب هزة جديدة ، وطفّر الشعر طفرة رائعة ، وجاء أستاذ الشعراء أبو تمام ففتح باباً جديداً لصناعة الشعر العربي ومضى تلميذه البحرى على غراه في صنع الشعر وقوله ، وإن أدخل عليه من ذوقه وفنه الشيء الكثير سواء في الوصف والتصوير أم في دقة المعنى والتعبير ، كما أخذت تلوح بوادر الابتكار في المعاني الطريفة ، وكان أبو نواس وصحبه من شعراء الحمر والحجانة بدءاً في هذا الشعر ، فبعثوا فيه روح التجدد والتفنن ، كل ذلك مع حفاظ على ديباجة القول المحكم الرصين ولإبراز القسائد والمقطعات في طراز رفيع يربط حاضر هذا الشعر بماضيه ، لكن الروح الفنية الجديدة دخلت هذا الشعر وآذنت الحضارة بتمازج الثقافات كما آذن الزمن أن يرث القرن الرابع كل هذه الصفات والمزايا في الشعر العربي ليستقبل أبو الطيب هذه الموارث سائغة مستحبة فيتداول أروعها وأبهاها ويختص شعره بأقوى ما فيها .

وكان بين الشعراء المبرزين آخرون دونهم في الشهرة والقصيد في هذا القرن - وكانت لهم آثار فنية شاعت لدى القوم حتى تبناها النقد والبحث - فيهم الشاعر أبو بكر الصنوبري الحلبي <sup>(١)</sup> الذي كان خازناً لمكتبة سيف الدولة <sup>(٢)</sup> وكان له

(١) « معجم الأدباء » لياقوت الجزء الثاني ص ٣١١ .

(٢) توفي الصنوبري سنة ٣٢٤ للهجرة .

شعر حسن ومن سوء حظه لم يعن به الثعالبي في « يتيمة الدهر » ولا الأصهباني في « أغانيه » .

وكان في بلاط سيف الدولة شاعر آخر هو كشاجم له مفارقات لطيفة في الشعر كما كان يجول بين حلب والموصل شاعران آخران هما الخالديان (١) وكان يسميهما الثعالبي بالساحرين .

وفي « يتيمة » الثعالبي شعراء كثيرون غير هؤلاء عاشوا في ظلال سيف الدولة كالنابغ أبي العباس ، وكان ألمعهم أبو فراس الحمداني ، وعاش آخرون من الشعراء عند البويهيين في فارس أو بالعراق .

(١) « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » لأبي منصور الثعالبي . طبع دمشق . الجزء الأول